

## هل المال مصدر للسعادة؟

آرثر بروكس

رئيس مركز أميركان انتربرايز



مركز أميركان انتربرايز (المشروع الأمريكي)

24 يونيو 2008



Does Money Make You Happy?

by Arthur C. Brooks

American Enterprise Institute

ترجمة: علي الحارس

ربما تكون قد سمعت ألف مرة عبارة (المال لا يشتري السعادة). وعلى الرغم من هذه البديهية، فإن البشر على امتداد التاريخ حاولوا جاهدين أن يكوموا الثروات. فهل نحن نعاني من نوع ما من الرأي الجمعي، أم هل من الممكن أن يكون المال يشتري السعادة حقاً؟ إن الدليل على ذلك يقدم بعض الدروس المفاجئة، فمثلاً:

- الشعوب الغنية ليست بالضرورة أكثر سعادة من الشعوب الفقيرة.
- كل الناس، وبمختلف مستوى الدخل، يقولون أنهم يحتاجون حوالي 40% أكثر مما يجنون.

## هل المال مصدر للسعادة؟

- الشعور بالنجاح. لا الغنى. أقرب للسعادة من غيره.
  - الرأسمالية مكون حيوي في الابتهاج الوطني الإجمالي في أمريكا.
- دعونا أولاً نتناول المسألة من منظور عالمي قبل كل شيء. قارن بين المكسيك وفرنسا. ففي المكسيك يعيش معظم الناس فوق مستوى الكفاف. لكن معدل القوة الشرائية لا يبلغ إلا ثلث مثيله في فرنسا. ومع ذلك. وبالمحصلة. يعتبر المكسيكيون أكثر سعادة من الفرنسيين. وفي استطلاع للرأي جرى في المكسيك عام 2002 قال 63% من البالغين أنهم سعداء جداً أو في غاية السعادة. أما في فرنسا فكانت النسبة 35% لمن أجاب بإحدى الإجابتين السابقتين.

### كلما حصلنا على مال أكثر، كلما احتجنا إلى المزيد

الأفراد كالمجتمعات: عندما يصلون إلى حد الكفاف. لا تزداد سعادتهم إن أصبحوا أكثر غنى. ومهما كبرت معدلات الغنى. وإن حدثت وازدادت السعادة فذلك بقدر قليل.

في دراسة جرت عام 1978. استجوب عالما نفس 22 شخصا من كبار رابحي اليانصيب. وخلصا إلى نتيجة مفادها أن ما حصل لهم من سعادة بالثروة المفاجئة تبخرت خلال بضعة أشهر. وعاشوا أوقاتاً أكثر صعوبة من الآخرين عندما تمتعوا بحياة الملذات المعتادة: مشاهدة التلفزيون، والتسوق، والحديث مع الأصدقاء، وما إلى ذلك.

إن سبب هذه الظاهرة يعود إلى أن البشر يميلون إلى التكيف النفسي السريع مع الظروف التي تحيط بهم. بما في ذلك المالية منها. ويطلق الاقتصاديون على هذه الظاهرة اسم «حلقة السعادة».

وكشفت إحدى الدراسات أن الناس يطلبون دائماً أكثر مما يجنون بمقدار (40%) من أجل الوصول إلى مستوى يعتبرونه كافياً لهم. فإذا كنت تجني 50 ألف دولار في العام. فهذا

## هل المال مصدر للسعادة؟

يعني أنك «تحتاج» 70 ألفاً. ولكنك إن حصلت على علاوة وأصبحت تجني السبعين ألفاً. فإنك سوف «تحتاج» سريعاً إلى حوالي 98 ألفاً. فكلما زاد ما عندك. زاد مقدار حاجتك.

وظهرت بعض الأبحاث التي تقترح أن مقدار المال الذي نجنيه لا علاقة له إلى حد بعيد بسعادتنا؛ فالمهم هنا هو مقدار مالنا الذي يزيد على أموال الغير. ففي إحدى الدراسات التي جرت على إحدى كليات جامعة هارفرد، طلاباً وأساتذة وكادراً، طلب من المشاركين أن يسجلوا رأيهم حول أحد أمرين:

- أن يجني أحدهم 50 ألف دولار في العام بينما يجني الآخرون نصف هذا المبلغ.
- أو أن يجني 100 ألف دولار بينما يجني الآخرون ضعف هذا المبلغ.

ونص السؤال على أن أسعار السلع واحدة في الخيارين. أي أن الراتب الأعلى يعني بشكل حقيقي القدرة على امتلاك منزل أفضل أو شراء سيارة أحسن. لكن ذلك لم يكن له أهمية كبيرة: إذ اختار 65% الخيار الأول متخليين بشكل افتراضي عن 50 ألف دولار في العام لسبب بسيط: أن يشعروا بأنهم أكثر غنى.

هل يمكن القول بأننا نهتم بالتفوق على الآخرين أكثر من الراحة المادية؟ بالكاد. إن ما تتمخض عنه بيانات الدراسات ينبئنا بأن الأغنى أكثر سعادة من الأفقر لأنه يحس بالنجاح في حياته. وأن النجاح، لا المال، هو ما نطمع به.

## النجاح أهم من المال

تخيل شخصين لهما نفس المستوى من الدخل والتعليم والعمر والجنس والعرق والدين والتوجه السياسي والحالة العائلية؛ وأحدهما يشعر بأنه ناجح جداً. والآخر ليس كذلك. إن الشخص الأول يتوقع له أن يكون أسعد بحياته من الآخر باحتمال يقارب الضعفين بالمقارنة. وإذا كانا يملكان المستوى نفسه من النجاح ولكن أحدهما يملك أموالاً أكثر

## هل المال مصدر للسعادة؟

مما لدى الآخر. فلن يكون هنالك اختلاف بين مستوى السعادة التي يشعر بها الأول مقارنة بالثاني.

وبالنتيجة: إذا كنا أنا وأنت نشعر بالمستوى ذاته من النجاح وكنت تجني من المال أربعة أضعاف ما أجنبي، فسنكون في المستوى نفسه من السعادة بحياتنا. وبالطبع، الأشخاص الناجحون يجنون أموالاً أكثر من غير الناجحين، بالمعدل. لكنه النجاح، وليس المال لوحده، هو من يمنحهم السعادة.

إن الوضع المادي هو أحد المؤشرات التي نقيس بها النجاح الذي نحرزه، وليس هناك من غرابة في هذا، فنحن طالما قسنا الأشياء بشكل غير مباشر. فأنا عندما أفرض على تلاميذي الامتحانات، لا أقصد من وراء ذلك أنني أؤمن بأن نتائجها لها قيمة في ذاتها، إنما لأنني أعلم بأن تلك النتائج تترابط بشكل وثيق مع مقدار ما قام به التلاميذ من دراسة ومدى نجاعة فهمهم للمادة.

إن ما يعتبره الباحثون دلالة على ميل مشين، وهنا نتحدث عن اكتساب المزيد من المال، هو في الحقيقة دليل على أن هنالك ما يدفعنا لإنتاج الفضيلة. فهذا الأمر فضيلة، وليس رذيلة. وحقيقة أن جمع المال يوفر لنا أيضاً السعادة إنما هي بركة هائلة.

إن المال معيار للنجاح، ولكم هي مفيدة هذه الأداة. ولكن هنالك جانب مظلم لهذه الحقيقة: وهو أن الناس ينسون دائماً أن المال ليس سوى معيار. فبعض الناس يركزون على المال من أجل المال، ناسين الأمر الحقيقي الذي يوفر لهم السعادة.

ولا شك أنك التقيت أشخاصاً يبذون وكأنهم محاصرون في دوامة من عدم الرضى قوامها المادية والبؤس. وذلك لأنهم يخلطون بين المال وما يجب أن يقاس بالمال مما يفاقم مشاكلهم. ومن بين أخطائهم أنهم لا يدخلون إلى المعادلة كافة أنواع النجاح التي لا يمكن للمال أن يقيسها، كالنجاح في حياتنا العائلية والروحية والاجتماعية. وحتى

## هل المال مصدر للسعادة؟

إن كانت خيارات أعمالهم تعكس الحقيقة المرة عن تخليهم عما يحبون عمله مقابل التعويض المالي الأعلى. إن الدليل على السعادة واضح بما فيه الكفاية لكي نتجنب المعايير الخاطئة للاتجاه المادي.

يؤمن البعض أنه ينبغي توجيه اللوم لسياسة السوق الرأسمالية. فتراه يصراح بأن: الضرائب تستنفد مداخيلنا بمعدلات عالية جدا بحيث أن المال والنجاح لم يعودا شديدي الترابط. ومن هنا، ينفق المال (الذي لا يزال نزعج أنفسنا بتحصيله) على شراء سلع وخدمات عامة عوضا عن المنازل الكبيرة وغيرها من مظاهر النجاح الفخمة. وكان لنا أن نكون أكثر سعادة لو خرجنا من سباق التسليح الذي تشترك فيه الدول الرأسمالية المستهلكة، وهو سباق أقنعنا أنفسنا حقا بجدواه. وفي مقابل هذا الخروج، يمكن لنا أن نستمتع بكافة الأشياء الجيدة التي سنحصل عليها من الحكومة. وردا على ذلك نقول:

### الإنفاق الحكومي نهج غير مثمر

في عام 1972، خصصت الحكومة الفدرالية حوالي 4300 دولار لكل مواطن أمريكي (بأسعار عام 2002). وبحلول عام 2002، ارتفع الإنفاق إلى 6900 دولار لكل شخص. ومع ذلك لم نزد سعادة. وفي عام 1972، قال 30.3% من الأمريكيين أنهم سعداء جدا. وفي عام 2002، كانت النسبة لا تزال نفسها بالضبط. وأسوأ من ذلك، أظهرت الدراسات أن الإنفاق الحكومي الأعلى أدى إلى دفع معدل السعادة باتجاه الأسفل، لا الأعلى.

إن نظام اقتصاد السوق، والذي دائما ما يكافئ النجاح بالمال، له القدرة على توليد الميل إلى الخلط بين النجاح نفسه وبين المال. ولكن السماح للحكومة بأخذ المزيد من المال الذي جنيناه بمشقة لن يعالج هذه المعضلة؛ بل على العكس، يمكن للحكومة أن تزيد المعضلة سوءا إذا حاولت أن تضبط قيمنا من خلال فرض الضرائب والإنفاق العام. إن أفضل حل للارتباك الأخلاقي في النزعة المادية هو ما يتأتى من أنفسنا وعوائلنا ومجتمعاتنا ومعتقداتنا.

## هل المال مصدر للسعادة؟

لقد كتب اليكسي دوتوكيفيل<sup>1</sup> في كتابه الكلاسيكي (الديمقراطية في أمريكا) حول الميل إلى «الفردانية المفرطة» في مجتمع أمريكي يتألف من وحدات مستقلة. ولكن دوتوكيفيل أشار إلى أن العلاج لا يكمن في إعادة ترتيب نظام الحياة في أمريكا. وإنما في مؤسسات المجتمع المدني: الأسرة، الكنيسة، المبرة، الصداقة؛ وهي بنى تشكل نسيجاً يمد وشائج الصلة بين الناس للمساعدة على تجنب حدوث أخطاء في النظام القيمي. وبعبارة أخرى، ليس اقتصاد السوق كافياً، وإنما ينبغي توفر نظام أخلاقي أيضاً. بالإضافة إلى المؤسسات التي توفر إمكانية التعبير عن هذا النظام الأخلاقي.

## نظام السوق الحر والأخلاق

يمكّننا نظام السوق الحر من العيش بالطريقة التي نشتهيها: فهو يمنح معظم الناس قوة شرائية قصوى ويمكّن المواطنين من العثور على وظائف تنسجم مع مهاراتهم ورغباتهم. وتقع على عاتقنا مهمة تحديد كيفية استخدام هذا القوة بالإضافة إلى قوة الحرية. وهذا يعتمد على قيمنا: إذ بإمكاننا أن نتخذ قرارات تقودنا إلى السعادة أو البؤس. ولكن إضعاف نظام السوق الحر الرأسمالي بداعي عدم تحقيقه للسعادة مباشرة سيكون أمراً لا معنى له: وسيكون ذلك كمن يرمي جهاز الكمبيوتر في القمامة لأنه لا يقوم بتحضير القهوة.

إن الحقيقة المتمثلة في أن بعض الأشخاص المرضى أو المعاقين أو العاجزين بأي شكل من الأشكال يقومون بجهد كبير لتأمين عيشهم في نظام السوق الحر لا تعني وجود خطأ ما في هذا النظام، وإنما تعني وجود خطأ ما في القيم الأخلاقية التي نعتنقها. ففي المجتمع الأخلاقي المثالي يجب أن يكون هؤلاء الأشخاص يتلقون العون من الآخرين بطريقة تحفظ كرامتهم وتبعدهم عن الاعتماد على الغير.

(1) اليكسي دوتوكيفيل (Alexis de Tocqueville): كاتب وسياسي فرنسي (1805- 1859). قام برحلة إلى أمريكا عام 1831 وعاد إلى فرنسا ليؤلف كتابه الشهير (الديمقراطية في أمريكا) الذي تناول فيه نقاط القوة والضعف في النظام الحكومي الأمريكي في تلك الفترة.

## هل المال مصدر للسعادة؟

ولا ينتقص من الرأسمالية شيء إن أدركنا حقيقة عدم شراء المال للسعادة. بل على العكس، تعد الرأسمالية الإطار الأفضل. وفي الحقيقة: الوحيد، لتمكين الناس من النجاح في إنجازاتهم، ونحن ندرك كم أن النجاح عنصر حيوي لتحقيق السعادة.

إن الرأسمالية، وبضابط من قيم الأمانة والعدالة والإحسان، تعد ركنا رئيسيا في بنية الابتهاج الوطني الإجمالي.